



أحبك أو لا أحبك

الطبعة الثامنة

دار العودة - بيروت

أحبك أو لا أحبك

صمّم الغلاف : الفنان نبيل قدوح

محمود درويش

أحبك أو لا أحبك

١٩٧٢

دار العودة - بيروت

١٩٩٣/١٠/١

الطبعة الثامنة

يطلب من دار العودة - بيروت

كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر

تلفون: ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

مزامير

- ١ -

أُحبُّكِ، أو لا أُحبُّكِ ـ

أذهبُ، أترك خلفي عناوين قابلةً للضياعْ.

وأنتظر العائدين؛ وهم يعرفون مواعيد موتي ويأتون.

أنتِ التي لا أحبُّك حين أُحبُّك، أسوارُ بابلَ

ضيِّقَةٌ في النهار، وعيناك واسعتان، ووجهك

منتشر في الشعاع.

كأنكِ لم تولدي بعد. لم نفترق بعد. لم تصرعيني.

وفوق سطوح الزوابع كلُّ كلام جميل، وكلُّ

لقاء وداع.

وما بيننا غيرُ هذا اللقاء، وما بيننا غير هذا الوداع.

أُحبُّك، أو لا أُحبُّك ـ
يهربُ مني جبيني، وأشعر أنك لا شيء أو كل شيء.
وأنك قابلة للضياع.

أُريدكِ، أو لا أُريدكِ ـ
إنَّ خرير الجداول محترقٌ بدمي. ذات يومٍ أراك،
وأذهب.
وحاولتُ أن أستعيد صداقةَ أشياء غابت ـ نجحت
وحاولت أن أتباهى بعينين تتسعان لكل خريف ـ
نجحت ـ وحاولتُ أن أرسم اسماً يلائم زيتونةً
حول خاصرةٍ ـ فتناسَلَ كوكبْ.

أُريدك حين أقول أنا لا أُريدك. .
وجهي تساقط. نهرٌ بعيدٌ يذوبُ جسمي. وفي السوق
باعوا دمي كالحساء المعلَّب.
أُريدك، حين أقول أُريدك ـ
يا امرأة وَضَعَتْ ساحل البحر الأبيض المتوسط في
حضنها. . وبساتين آسيا على كتفيها. . وكلَّ

السلاسل في قلبها.

أُريدك، أو لا أُريدك ـ
إنَّ خرير الجداول. إنَّ حفيف الصنوبر. إنَّ هدير
البحار. وريشَ البلابل محترقٌ في دمي ـ ذات
يوم أراك، وأذهب.

أُغنّيك، أو لا أُغنّيك ـ
أسكتُ. أصرخُ. لا موعد للصراخ ولا موعد
للسكوت. وأنتِ الصراخ الوحيدُ وأنتِ السكوت
الوحيدْ.

تداخل جلدي بحنجرتي. تحت نافذتي تعبر الريح
لابسةً حَرَساً. والظلامُ بلا موعد. حين ينزل
عن راحتيَّ الجنودْ
سأكتبُ شيئاً..
وحين سينزل عن قدميَّ الجنود
سأمشي قليلاً..
وحين سيسقط عن ناظريَّ الجنود

أراكِ . . أرى قامتي من جديد.
أُغنّيك، أو لا أُغنّيك
أنت الغناء الوحيد، وأنت تُغنّينني لو سكتُّ. وأنت
السكوتُ الوحيد.

- ٢ -

في الأيام الحاضره
أجد نفسي يابساً
كالشجر الطالع من الكتب
والريح مسألة عابره.
أُحارب.. أو لا أُحارب ؟
ليس هذا هو السؤال
المهمّ أن تكون حنجرتي قويَّة.
أعمل.. أو لا أعمل ؟.
ليس هذا هو السؤال
المهمّ أن أرتاح ثمانية أيام في الأسبوع
حسب توقيت فلسطين.

أيها الوطن المتكرر في الأغاني والمذابح ،
دُلّني على مصدر الموت
أهو الخنجر . . أم الأكذوبة ؟

لكي أذكر أن لي سقفاً مفقوداً
ينبغي أن أجلس في العراء .
ولكيلا أنسى نسيم بلادي النقي
ينبغي أن أتنفس السل
ولكي أذكر الغزال السابح في البياض
ينبغي أن أكون معتقلاً بالذكريات .
ولكيلا أنسى أن جبالي عالية
ينبغي أن أُسرِّح العاصفة من جبيني .
ولكي أُحافظ على ملكية سمائي البعيدة
يجب ألّا أملك حتى جلدي .

أيها الوطن المتكرر في المذابح والأغاني
لماذا أُهرِّبك من مطار إلى مطار
كالأفيون . .

والحبر الأبيض . .

وجهاز الإرسال ؟!

أريد أن أرسم شكلك .

أيها المبعثر في الملفات والمفاجآت

أريد أن أرسم شكلك

أيها المتطاير على شظايا القذائف وأجنحة العصافير

أريد أن أرسم شكلك

فتخطف السماءُ يدي .

أريد أن أرسم شكلك

أيها المحاصر بين الريح والخنجر

أريد أن أرسم شكلك

كي أجد شكلي فيك

فأتّهم بالتجريد وتزوير الوثائق والصور الشمسية

أيها المحاصر بين الخنجر والريح .

ويا أيها الوطن المتكرر في الأغاني والمذابح

كيف تتحول إلى حلم وتسرق الدهشة

لتتركني حجراً .

لعلَّك أجمل في صيرورتك حلماً
لعلَّك أجمل !..

لم يبق في تاريخ العرب
اسم أستعيره
لأتسلَّل به إلى نوافذك السريَّة.
كل الأسماء السرية محتجزة
في مكاتب التجنيد المكيَّفة الهواء
فهل تقبل اسمي -
اسمي السري الوحيد -
محمود درويش ؟
أما اسمي الأصلي
فقد انتزعته عن لحمي
سياطُ الشرطة وصنوبرُ الكرمل

أيها الوطن المتكرر في المذابح والأغاني
دُلَّني على مصدر الموت
أهو الخنجر
أم الأكذوبة ؟!

- ٣ -

يومَ كانتْ كلماتي

تربةً . .

كنت صديقاً للسنابلْ .

يومَ كانت كلماتي

غضباً . .

كنت صديقاً للسلاسل

يوم كانت كلماتي

حجراً . .

كنتُ صديقاً للجداول .

يومَ كانت كلماتي

ثورةً . .

كنت صديقاً للزلازل

يوم كانت كلماتي

حنظلاً . .

كنتُ صديقَ المتفائل

حين صارت كلماتي

عسلاً . .

غطَّى الذباب

شفتيَّ ! . .

- ٤ -

تركت وجهي على منديل أمّي
وحملت الجبال في ذاكرتي
ورحَلْت . .
كانت المدينة تكسر أبوابها
وتتكاثر فوق سطوح السفن
كما تتكاثر الخضرة في البساتين التي تبتعد . .
إنني أتَّكىء على الريح
يا أيتها القامة التي لا تنكسر
لماذا أترنَّح ؟ . . وأنت جداري
وتصقلني المسافة
كما يصقل الموتُ الطازج وجوهَ العُشّاق

وكلما ازددتُ اقتراباً من المزامير
ازددتُ نُحولاً . .
يا أيتها الممرات المحتشدة بالفراغ
متى أصل ؟ . .
طوبى لمن يلتفُّ بجلده !
طوبى لمن يَتذكَّر اسمه الأصليَّ بلا أخطاء !
طوبى لمن يأكل تفاحة ولا يصبح شجرة .
طوبى لمن يشرب من مياه الأنهار البعيدة
ولا يصبح غيماً !
طوبى للصخرة التي تعشق عبوديتها
ولا تختار حرية الريح !.

- ٥ -

أكلما وقفتْ غيمة على حائط
تطايرت إليها جبهتي كالنافذة المكسورة
ونسيت أني مرصود بالنسيان
وفقدت هويتي ؟
إنني قابل للانفجار
كالبكارة . .

وكيف تتّسع عيناي لمزيد من وجوه الأنبياء ؟
إتبعيني أيتها البحار التي تسأم لونها
لأدلك على عصا أخرى.
إنني قابل للأعجوبة

كالشرق . .

أنا حالة تفقد حالتها

حين تكفُّ عن الصراخ

هل تسمّون الرعدَ رعداً والبرقَ برقاً

إذا تحجَّر الصوت، وهاجر اللون ؟!

أكلما خرجتُ من جِلدي .

ومن شيخوخة المكان

تناسل الظلُّ، وغطّاني . . . ؟

أكلما أُطلقتُ رياحي في الرماد

بحثاً عن جمرة منسيَّة

لا أجد غير وجهي القديم الذي تركته

على منديل أُمي ؟

إنني قابلٌ للموت

كالصاعقة . .

- ٦ -

أشجار بلادي تحترف الخضرة
وأنا أحترف الذكرى.
والصوت الضائع في البرية
ينعطف نحو السماء، ويركع :
أيها الغيم ! هل تعود ؟

لستُ حزيناً إلى هذا الحدّ
ولكن، لا يحبُّ العصافير
من لا يعرف الشجر.
ولا يعرف المفاجأة
من اعتاد الأكذوبة.

لستُ حزيناً إلى هذا الحد
ولكن، لا يعرف الكذب
من لم يعرف الخوف.

أنا لستُ منكمشاً إلى هذا الحد
ولكن الأشجار هي العالية.
سيداتي، آنساتي، سادتي
أنا أحبُّ العصافير
وأعرف الشجر
أنا أعرف المفاجأة
لأني لم أعرف الأكذوبة.
أنا ساطع كالحقيقة والخنجر
ولهذا أسألكم:
أطلقوا النار على العصافير
لكي أصِفَ الشجر.
أوقفوا النيل
لكي أصف القاهرة.
أوقفوا دجلة أو الفرات أو كليهما
لكي أصف بغداد.

أوقفوا بردى
لكَي أصف دمشق !
وأوقفوني عن الكلام
لكي أصف نفسي . .

- ٧ -

ظلُّ النخيل، وآخرُ الشهداء، والمذياع يرسل صورةً
صوتيةً عن حالة الأحباب يوميّاً، أُحبُّك في
الخريف وفي الشتاءْ.

ـ لم تبك حيفا. أنت تبكي. نحن لا ننسى تفاصيل
المدينة، كانت امرأةً، وكانت أنبياءْ.

البحرُ ! لا. البحرُ لم يدخل منازلنا بهذا الشكل.
خمسُ نوافذٍ غرقتْ، ولكنَّ السطوح تعجُّ
بالعشب المجفَّف والسماءْ ـ

ودَّعتُ سجّاني. سعيداً كان بالحرب الرخيصة.
آه يا وطن القرنفل والمسدَّس، لم تكن أمّي معي.
وذهبتُ أبحث عنك خلف الوقت والمذياع. شكلك
كان يكسرني.. ويتركني هباءْ.

كان الكلام خطيئةً، والصمت منفى. والفدائيون
أسرى توقهم للموت في واديك. كان الموت تذكرة
الدخول إلى يديك. وكنتَ تحتقر البكاءْ.

والذكرياتُ هويَّة الغرباء أحياناً، ولكنَّ الزمان
يضاجع الذكرى وينجب لاجئين، ويرحل
الماضي، ويتركهم بلا ذكرى. أتذكرنا؟ وماذا
لو تقول: بلى!. أتذكر كل شيء عنك؟ ماذا
لو نقول: بلى!.. وفي الدنيا قضاةٌ يعبدون الأقوياءْ.

من كل نافذةٍ رميتُ الذكريات كقشرة البطيخ،
واستلقيتُ في الشَّفَق المحاذي للصنوبر (تلمع
الأمطار في بلد بعيد. تقطف الفتياتُ خوخاً غامضاً...)

والذكرياتُ تمرٌّ مثل البرق في لحمي، وترجعني
إليك.. إليك. إنَّ الموت مثل الذكريات كلاهما
يمشي إليك.. إليك، يا وطناً تأرجح بين كلِّ
خناجر الدنيا وخاصرةِ السماءْ.

ظلّ النخيل، وآخر الشهداء والمذياع يرسل صورة
صوتية عن حالة الأحباب يوميّاً ـ أُحبك في
الخريف وفي الشتاءْ.

- ٨ -

حالة الاحتضار الطويلهْ
أرجعتني إلى شارع في ضواحي الطفولهْ
أدخلتني بيوتاً
قلوباً
سنابل
منحتني هويَّه
جعلتني قضيَّه
حالةُ الاحتضار الطويلهْ.

* * *

كان يبدو لهم
أنني ميِّت، والجريمةُ مرهونةٌ بالأغاني

فمرُّوا، ولم يلفظوا اسمي.
دفنوا جثتي في الملفّات والانقلابات،
وابتعدوا.
(والبلاد التي كنتُ أحلم فيها ـ سوف
تبقى البلاد التي كنتُ أحلم فيها).

كان عمراً قصيراً
وموتاً طويلا
وأفقتُ قليلا
وكتبتُ اسم أرضي على جُثّتي
وعلى بندقيَّهْ
قلت : هذا سبيلي
وهذا دليلي
إلى المدن الساحليَّهْ.
وتحركتُ،
لكنهم قتلوني.

* * *

دفنوا جثتي في الملفات والانقلابات،
وابتعدوا.

(والبلاد التي كنتُ أحلم فيها ـ
سوف تبقى البلاد التي كنتُ أحلم فيها).

* * *

أنا في حالة الاحتضار الطويلهْ
سيِّد الحزن.
والدمع من كل عاشقة عربيَّه
وتكاثر حولي المغنّون والخطباء
وعلى جثتي ينبتُ الشعر والزعماء
وكل سماسرة اللغة الوطنيَّه

صفِّقوا
صفِّقوا
صفِّقوا
ولتعشْ
حالة الاحتضار الطويلهْ

* * *

حالةُ الاحتضار الطويلهْ
أرجعتني إلى شارع في ضواحي الطفولهْ

أدخلتني بيوتاً.. قلوباً.. سنابل
جعلتني قضيَّه
منحتني هويَّه
وتراثَ السلاسل.

- ٩ -

إني أتأهَّب للانفجار
على حافة الحلم
كما تتأهب الآبار اليابسة
للفيضان .

إني أتأهَّب للانطلاق
على حافة الحلم
كما تتأهب الحجارة
في أعماق المناجم الميتة

إني أتحفَّز للموت

على حافة الحلم
كما يتحفز الشهيد للموت
مرة أُخرى.

إني أتأهَّب للصراخ
على حافة الحقيقة
كما يتأهَّب البركان
للانفجار.

- ١٠ -

الرحيل انتهى
من يغطّي حبيبي
كيف مرَّ المساء المفاجىء
كيف اختفى
في عيون حبيبي ؟
الرحيل انتهى .

أصدقائي يمرون عني .
أصدقائي يموتون فجأة

الرحيل انتهى

في جناح السنونو.
الرحيل ابتدأ
حين فرَّ السجين.

ما عرفتُ الضياع
في صرير السلاسل
كان لحمي مشاع
كسطوح المنازل
لعدوّي، ولكن
ما عرفت الضياع
في صرير السلاسل

أصدقائي يمرُّون عني
أصدقائي يموتون فجأه.

- ١١ -

أداعب الزمن
كأمير يلاطف حصاناً.
وألعبُ بالأيام
كما يلعب الأطفال بالخرز الملوَّن.

إني أحتفل اليوم
بمرور يوم على اليوم السابق
وأحتفل غداً
بمرور يومين على الأمس
وأشرب نخب الأمس
ذكرى اليوم القادم

وهكذا.. أُواصل حياتي !

عندما سقطتُ عن ظهر حصاني الجامح
وانكسرت ذراعي
أوجعتني إصبعي التي جرحت
قبل ألف سنة !

وعندما أحييت ذكرى الأربعين لمدينة عكا
أجهشت في البكاء على غرناطة
وعندما التفَّ حبل المشنقة حول عنقي
كرهت أعدائي كثيراً
لأنهم سرقوا ربطة عنقي !

- ١٢ -

نرسم القدسَ :
إله يتعرَّى فوق خطٍّ داكن الخضرة. أشباه عصافير تهاجرْ
وصليب واقف في الشارع الخلفيِّ. شيء يشبه البرقوق
والدهشة من خلف القناطرْ
وفضاء واسع يمتدُّ من عورة جنديّ إلى تاريخ شاعر.

نكتبُ القدس :
عاصمة الأمل الكاذب... الثائر الهارب.. الكوكب
الغائب. اختلطتْ في أزقّتها الكلماتُ الغريبةُ،
وانفصلتْ عن شفاه المغنّين والباعةِ القُبَلُ
السابقةْ.
قام فيها جدار جديد لشوق جديد، وطروادةُ

التحقتْ بالسبايا. ولم تَقُل الصخرةُ الناطقهْ
لفظةً تُثبِتُ العكس. طوبى لمن يجهضُ النار في
الصاعقهْ !.

ونغني القدسَ :
يا أطفالَ بابلْ
يا مواليد السلاسلْ
ستعودون إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون.
وقريباً تحصدون القمح من ذاكرة الماضي
قريباً يصبح الدمع سنابل.
آه، يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون.
وقريباً
وقريباً
وقريباً....
هلّلويا
هلّلويا !

عائد إلى يافا

هو الآن يرحل عنّا

ويسكن يافا

ويعرفها حجراً . . حجراً

ولا شيء يشبهه

والأغاني

تقلِّدهُ . .

تقلِّد موعده الأخضرا .

هو الآن يعلن صورته ـ

والصنوبر ينمو على مشنقهْ

هو الآن يعلن قصَّته ـ

والحرائقُ تنمو على زنبقهْ

هو الآن يرحل عنّا
ليسكن يافا

ونحن بعيدون عنه،
ويافا حقائبُ منسيَّة في مطارْ
ونحن بعيدون عنه؛
لنا صُوَرٌ في جيوب النساء،
وفي صفحات الجرائدِ،
نعلن قصَّتنا كل يوم
لنكسب خصلة ريح وقبلة نار.

ونحن بعيدون عنه،
نهيب به أن يسير إلى حتفه. .
نحن نكتب عنه بلاغاً فصيحاً
وشعراً حديثاً
ونمضي. . لنطرح أحزاننا في مقاهي الرصيف
ونحتجُّ : ليس لنا في المدينة دار.
ونحن بعيدون عنه،
نعانق قاتله في الجنازة،

نسرق من جرحه القطن حتى نلمِّعَ
أوسمة الصبر والانتظار

هو الآن يخرج منا
كما تخرج الأرض من ليلة ماطرهْ
وينهمر الدمُ منهُ
وينهمرُ الحبرُ منّا.
وماذا نقول له ؟ ـ تسقطُ الذاكرهْ
على خنجرٍ ؟
والمساءُ بعيدٌ عن الناصرهْ !
هو الآن يمضي إليه
قنابل أو.. برتقالهْ
ولا يعرف الحدَّ بين الجريمة حين تصير حقوقاً
وبين العدالهْ
وليس يصدِّق شيئاً
وليس يكذِّبُ شيئاً.
هو الآن يمضي.. ويتركنا
كي نعارض حيناً

ونقبلَ حينا .
هو الآن يمضي شهيداً
ويتركنا لاجئينا !

ونام
ولم يلتجىء للخيام
ولم يلتجىء للموانىء
ولم يتكلَّمْ
ولم يتعلَّمْ
وما كان لاجىء
هي الأرض لاجئةٌ في جراحه
وعاد بها .
لا تقولوا : أبانا الذي في السموات
قولوا : أخانا الذي أخذ الأرض منّا
وعاد . .
هو الآن يُعدمُ
والآن يسكنُ يافا
ويعرفها حجراً . . حجرا

ولا شيء يشبهه

والأغاني

تقلِّده.

تقلِّد موعده الأخضرا

لترتفع الآن أذرعةُ اللاجئين

رياحاً.. رياحا.

لتنتشر الآن أسماؤهم

جراحاً.. جراحا.

لتنفجر الآن أجسادهم

صباحاً.. صباحا.

لتكتشف الأرضُ عنوانها

ونكتشف الأرضَ فينا.

عازف الجيتار المتجول

كان رسّاماً،

ولكنَّ الصُّوَر

عادةً،

لا تفتح الأبواب

لا تكسرها . .

لا تردُّ الحوت عن وجه القمر.

(يا صديقي، أيها الجيتار

خذني . .

للشبابيك البعيدهْ)

* * *

شاعراً كان،

ولكنَّ القصيدهْ
يبستْ في الذاكرهْ
عندما شاهد يافا
فوق سطح الباخرهْ.

(يا صديقي، أيها الجيتار
خذني . .
للعيون العسليَّهْ)

* * *

كان جنديًّاً،
ولكنَّ شظيَّهْ
طحنتْ ركبته اليسرى
فأعطوهُ هديَّهْ :
رتبةً أُخرى
ورجلاً خشبيَّهْ !.

(يا صديقي، أيها الجيتار
خذني . .

للبلاد النائمةْ)

* * *

عازف الجيتار يأتي
في الليالي القادمةْ
عندما ينصرف الناسُ إلى جمع تواقيع الجنود
عازف الجيتار يأتي
من مكان لا نراهُ
عندما يحتفلُ الناس بميلاد الشهود
عازف الجيتار يأتي
عارياً، أو بثياب داخليَّهْ.

عازف الجيتار يأتي
وأنا كدت أراه
وأشمُّ الدم في أوتارِهِ
وأنا كدت أراه
سائراً في كل شارعْ
كدت أن أسمعه
صارخاً ملء الزوابع

حدِّقوا :

تلك رجل خشبيَّهْ

واسمعوا :

تلك موسيقى اللحوم البشريَّهْ.

تقاسيم على الماء

وراء الخريف البعيدْ
ثلاثون عاماً
وصورةُ ريتا
وسنبلة أكملت عمرها
في البريد.
وراء الخريف البعيد

أحبكِ يوماً.. وأرحل
تطير العصافير باسمي
وتُقتلْ.
أُحبك يوماً
وأبكي

لأنك أجمل من وجه أمي
وأجملْ
من الكلمات التي شرَّدتني . . .

على الماء وجهك،
ظلُّ المساء
يخاصمُ ظلّي
وتمنعني من محاذاة هذا المساء
نوافذُ أهلي .
متى يذبل الورد في الذاكره ؟
متى يفرح الغرباء ؟
لكي أصف اللحظة العائمه
على الماء ـ
أسطورة أو سماء . .

. . وتحت السماء البعيدهْ
نسيتك،
تنمو الزنابق
هناك . . بلا سببٍ
والبنادق

هناك.. بلا غضبٍ

والقصيدهْ

هناك.. بلا شاعر

والسماء البعيدهْ

تحاذي سطوح المنازلْ

وقبَّعة الشرطيِّ

وتنسى جبيني...

وتحت المساء الغريبْ

تعذِّبنا الأرض،

جسمك يقتبس البرتقال

ويهربُ منّي.

أُحبُّك،

والأفق يأخذ شكل سؤال

أُحبُّك،

والبحر أزرقْ

أُحبُّك،

والعشب أخضرْ

أُحبُّك - زنبقْ

أُحبُّك ـ خنجر
أُحبك يوماً
وأعرف تاريخ موتي
أُحبُّك يوماً
بدون انتحار
وراء الخريف البعيد
أمشِّط شعركِ.
أرسم خصركِ..
في الريح، نجماً.. وعيد..
أُحبُّك يوماً
أُحبُّك قرب الخريف البعيد
تمرُّ العصافير باسمي
طليقهْ
وباسمي ـ يمر النهار
حديقهْ.
وباسمك أَحيا
أُحبُّك يوماً،
وأحيا..
وراء الخريف البعيد.

قتلوك في الوادي

أُهديك ذاكرتي على مرأى من الزمنِ
أُهديك ذاكرتي
ماذا تقول النار في وطني
ماذا تقول النار ؟
هل كنتِ عاشقتي
أم كنتِ عاصفةً على أوتار ؟
وأنا غريب الدار في وطني
غريب الدار. .

أُهديك ذاكرتي على مرأى من الزمنِ
أُهديك ذاكرتي
ماذا يقول البرقُ للسكّينْ

ماذا يقول البرقْ
هل كنت في حطّين
رمزاً لموت الشرقْ
وأنا صلاح الدين
أم عبدُ الصليبيين ؟

أُهديك ذاكرتي على مرأى من الزمنِ
أُهديك ذاكرتي
ماذا تقول الشمسُ في وطني
ماذا تقول الشمسْ ؟
هل أنت ميِّتة بلا كفن
وأنا بدون القدسْ ؟

* * *

طلعتْ من الوادي
يُقال تضاءل الوادي وغابْ
وجمالها السرّيّ لفَّ سنابل القمح الصغيرةَ
حلّ أسئلة التراب.
هل تذكرون الصيف يا أبناء جيلي
يا كلّ أزهار الجليل

وكلّ أيتام الجليل

هل تذكرون الصيف يصعد من أناملها

ويفتح كلَّ بابْ.

قالت بنفسجة لجارتها

عطشتُ،

وكان عبد اللّه يسقيني

فمن أخذ الشباب من الشباب ؟

طلعتْ من الوادي

وفي الوادي تموت..

ونحن نكبر في السلاسلْ

طلعتْ من الوادي مفاجأة

وفي الوادي تموت على مراحل.

ونمرُّ عنها الآن جيلاً بعد جيل

ونبيع زيتون الجليل بلا مقابل

ونبيع أحجار الجليل

ونبيع تاريخ الجليل

ونبيعها.

كي نشتري في صدرها شكلاً

لمقتولٍ يقاتل.

* * *

لم أعترفْ بالحبِّ عن كَثَبِ
فليعترف موتي
وطفولتي - طروادة العربِ
تمضي.. ولا تأتي
كلُّ الخناجر فيك،
فارتفعي
يا خضرة الليمون
وتوهجي في الليل
واتسعي
لبكاء مَنْ يأتون

الريحُ واقفةٌ على خنجرْ
ودماؤنا شَفَقُ
لا تحرقي منديلك الأخضر
الليل يحترقُ

طوبى لمن نامت على خشبهْ
مِلْءَ الردى.. حيَّه

طوبى لسيف يجعل الرقبهْ
أنهار حريَّه !

لم نعترف بالحبِّ عن كثبِ
فليغضب الغضبُ
نمشي إلى طروادة العربِ
والبعد يقتربُ.

* * *

لا تذكرينا
حين نفلتُ من يديكِ
إلى المنافي الواسعهْ
إنّا تعلَّمنا اللغات الشائعهْ
ومتاعبَ السَّفر الطويل
إلى خطوط الاستواءْ
والنوم في كل القطارات البطيئة والسريعهْ
والحُبَّ في الميناء..
والغزلَ المعدّ لكل أنواع النساء
إنا تعلَّمنا صداقة كل جرحِ
ومصارع العشاق

والشوق المعلّب

والحساءَ بدون ملحِ

* * *

ـ يا أيها البلد البعيدْ

هل ضاع حبّي في البريد ؟

لا قُبلة المطاط تأتينا

ولا صدأ الحديد

كُلُّ البلاد بلادنا

ونصيبُنا منها . . بريدْ !

* * *

لا تذكرينا

حين نفلتُ من يديك

إلى السجون

إنّا تعلمنا البكاء بلا دموع

وقراءةَ الأسوار والأسلاك والقمر الحزين

حرية . .

وحمامة . .

ورضا يسوع .

وكتابةَ الأسماء :
عائشة تودِّع زوجها
وتعيشُ عائشةٌ . . .
تعيش روائح الدم والندى والياسمين

* * *

ـ يا أيها الوجه البعيدْ
قتلوك في الوادي ،
وما قتلوك في قلبي
أريدكَ أن تعيد
تكوينَ تلقائيَّتي
يا أيّها الوجه البعيد !

* * *

ولتذكرينا . .
حين نبحث عنك تحت المجزرهْ
وليبقَ ساعدُكِ المطلُّ على هدير البحر
والدم في الحدائق
وعلى ولادتنا الجديدة . .
قنطرهْ !

ولتبقَ كلٌّ زنابق الكفِّ النديَّةَ

في حديقتها

فإنّا قادمون

مَنْ يشتري للموت تذكرة سوانا

اليوم . . مَنْ !

نحن اعتصرنا كلَّ غيم خرائط الدنيا

وأشعارَ الحنين إلى الوطنْ

لا ماؤها يروي

ولا أشواقها تكوي

ولا تبني وطنْ .

ولتذكرينا . .

نحن نذكرك اخضراراً طالعاً من كل دم

طين . . ودم

شمس . . ودم

زهر . . ودم

ليل . . ودم

وسنشتهيك ـ

وأنت طالعة من الوادي

ونازلةً إلى الوادي

غزالاً سابحاً في حقل دم

دم

دم

دم . .

* * *

يا قبلة نامت على سكّينْ

تفّاحةَ القُبَلِ

من يذكر الطعم الذي يبقى -

ولا تبقين -

كحديقة الأملِ !

- إنّا كبرنا أيها المسكين

قالت ليَ الدنيا.

- وحبيبتي ؟

* لا يكبر الموتى

- وأقماري ؟

* سقطتْ مع الدارِ

يا قبلة نامت على سكّينْ

هل تذكرين فمي ؟

إني أُحبُّكِ حين تحترقين

هل تحرقين دمي !

كالزنبق اللاذع

وأُحبُّ موتك حين يأخذني

إلى وطني

كالطائر الجائع

يا قبلة نامت على سكّينْ . .

البرتقال يضيء غربتنا

البرتقال يضيءْ

والياسمين يثير عزلتنا

والياسمين بريءْ

يا قبلة نامت على سكّين .

تستيقظين على حدود الغدْ

تستيقظين الآنْ

وتبعثرين الساحل الأسود

كالريح والنسيان

يا قبلة نامت على سكّينْ

* * *

كَبُرَ الرحيلْ

كبر اصفرار الورد يا حبي القتيلْ

كبر التسكُّع في ضياء العالم المشغول عنّي

كبر المساء على شوارع كل منفى

كبر المساء على نوافذ كل سجن

وكبرت في كل الجهات

وكبرت في كل الفصول . .

وأراكِ

تبتعدين . . تبتعدين في الوادي البعيد

وتغادرين شفاهنا

وتغادرين جلودنا

وتغادرين . .

وأنتِ عيد .

وأراكِ

أشجارُ النخيلْ

سقطت .

وماذا قال عبد اللّٰه ؟

ـ في الزمن البخيل

يتكاثر الأطفال والذكرى وأسماء الإله .

وأراكِ

كلّ يد تصيح هناك آه

كنّا صغاراً

كانت الأشياء جاهزة

وكان الحبُّ لعبهْ.

وأراكِ

وجهي فيك يعرفني

ويعرف كلَّ حبَّهْ

من شاطىء الرمل الكبير

وأنت تبتعدين عني

والموت لُعْبَهْ..

وأراكِ..

أحنتْ غابة الزيتون هامتها

لريح عابرهْ

كل الجذور هنا

هنا

كل

الجذور

الصابرهْ

فلتحترق كل الرياح السود

في عينين معجزتين

يا حبّي الشجاع .

لم يبق شيء للبكاء

إلى اللقاء

إلى اللقاء .

كبرت مراسيم الوداع

والموت مرحلة بدأناها

وضاع الموت

ضاع .

في ضجة الميلاد

فامتدي

من الوادي إلي سبب الرحيل

جَسَداً على الأوتار يركض

كالغزال المستحيل . .

مرة أخرى

مَرَّةً أُخرى
ينامُ القَتَلَهْ
تحت جلدي
وتصير المشنقهْ
عَلَماً
أو
سنبلهْ
في سماء الغابة المحترقهْ

حَذَفَ الظل يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرهْ

مرَّةً أُخرى

يمرُّ العسكريّ
تحت جلدي .
مرة أُخرى
يُواري شفتيّ
في تجاعيد النشيد الوطني !

حذف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرهْ .

مرَّةً أُخرى
يفر الشهداءْ
من أغاني الشعراءْ .
مرةً أخرى
نزلنا عن صليبَيْنا
فلم نعثر على أرض
ولم نبصر سماءْ

حذف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرهْ

مرَّةً أُخرى
اتّحدنا
أنا والقاتل والموت المعاد
أصبحت حريَّتي عبئاً
على قلبي
وعيناها منافي وبلاد
مرة أخرى
يضيع الماء في الغيم
ونُدعى للجهاد !..

حذف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرهْ.

قتلوها في الظهيرهْ
بدلاً مني،
ولم يعتقلوني
مرةً أُخرى
لأنَّ القَتَلَهْ
تحت جلدي..

أغنية إلى الريح الشمالية

قُبَلٌ مجفَّفةٌ على المنديلِ

من دار بعيدهْ

ونوافذ في الريح ،

تكتشف المدينة في قصيدهْ .

كان الحديث سُدى عن الماضي

وكسَّرني الرحيلْ

وتقاسمتني زرقةُ البحر البعيد

وخضرةُ الأرض البعيدهْ .

أماه ! . وانتحرت بلا سببٍ

عصافير الجليل .

يا أيها القمر القريب من الطفولة والحدود

لا تسرق الحلم الجميل

من غرفة الطفل الوحيد
ولا تسجِّل فوق أحذية الجنود
إسمي وتاريخي -
سألتك أيها القمر الجميل.
هربت حقولُ القمح من تاريخها
هرب النخيل.
كان الحديث سُدى عن الماضي
وكان الأصدقاء
في مدخل البيت القديم يسجِّلون
أسماء موتاهم
وينتظرون بوليساً
وطوق الياسمين..

* * *

قُبَلٌ مجفَّفةٌ على المنديل
من دار بعيدهْ.
ونوافذ في الريح تكسر جبهتي
قرب المساء.
كان البريد يعيد ذاكرتي من المنفى

ويبعثني الشتاء
غصناً على أشجار موتانا
وكان الأصدقاء

في السجن. .
كانوا يشترون الضوء
والأمل المهرَّب
والسجائر

من كل سجّان وشاعر.
كانوا يبيعون العذاب لأي عصفور مهاجر
ما دام خلف السور حقل من ذرهْ
وسنابل تنمو. .
بلادي خلف نافذة القطار
تفاحة مهجورهْ،
ويدان يابستان كالدفلى. .
كأسماء الشوارع. .
كالحصار.
بالقيد أحلم،
كي أُفسِّر صرختي للعابرينْ

بالقيد أحلم،

كي أرى حريَّتي، وأعدُّ أعمار السنين

بالقيد أحلم،

كيف يدخل وجه يافا في حقيبهْ

بيني وبينك بُرْهَةٌ في زي مشنقةٍ

ولم أُشنق.. فعدت بلا جبين.

بيني وبين البرهة امتدَّت عصور

بالقيد أحلم،

كيف يدخل وجه يافا في حقيبهْ!.

* * *

قُبَلٌ مجفَّفة على المنديل

من دار بعيدهْ.

ونوافذ في الريح، يا ريح الشمالْ

ردّي إلى الأحباب قُبلتهم

ولا تأتي إليّ!

من يشتري صدر المسيح

ويشتري جلد الغزال

ومعسكرات الاعتقال

ديكورَ أُغنية عن الوطن المفتَّت في يديّ !.
كان الحديث سدى عن الماضي ،
وكان الأصدقاء
يضعون تاريخ الولادة بين أَلياف الشجر
ودَّعتُهم . .
فنسيت خاصرتي وحنجرتي وميعاد المطر
وتركتُ حول زنودهم قيدي
فصرت بدون زند، واختصمتُ مع الشجر
والأصدقاء هناك ينتظرون بوليساً
وطوق الياسمين
وأنا أحاول أن أكون
ولا أكون . .

أغنيات حب إلى أفريقيا

- ١ -

هل يأذن الحُرّاس لي بالانحناءْ
فوق القبور البيض يا إفريقيا ؟
ألقتْ بنا ريح الشمال إليك
واختصر المساء
أسماءنا الأولى . .
وكُنّا عائدين من النهار
بكآبة التنقيب عن تاريخنا الآتي
وكنّا متعبين .
ضاع المغنّي والمحاربُ والطريق إلى النهار
ـ من أنت ؟

* عصفور يجفِّفُ ريشه الدامي

ـ وكيف دخلتَ ؟

* كان الأفق مفتوحاً

وكان الأوكسجين

ملء الفضاء

ـ وما تريد الآن ؟

* ريشةَ كبرياء

وأُريد أن أرث الحشائش والغناء

فوق القبور البيض. . يا إفريقيا !

ـ ٢ ـ

هل يأذن الحراس لي بالاقتراب

من جُثَّة الأبنوس. . يا إفريقيا ؟

ألقتْ بنا ريحُ الشمال إليك،

واختبأ السحابْ

في صدرك العاري،

ولم تُعلن صواعقُنا حدودَ الاغترابْ

والشمسُ بالمجّان مثل الرمل والدم،

والطريق إلى النهار

يمحو ملامحنا، ويتركنا نعيد الانتظار
صَفّاً من الأشجار والموتى . .
نحبُّكِ . .
نشتهي الموت المؤقّت
نشتهيه ويشتهينا .
نلتفُّ بالمدنِ البعيدة والبحار
لنفسِّر الأمل المفاجىء
والرجوعَ إلى المرايا
ـ من أنتَ ؟
* جنديٌّ يعود من التراب
بهزيمة أُخرى وصورةِ قائد
ـ ماذا تريد ؟
* بيتاً لأمعائي ، وطفلاً من حديد
وأُريد صكَّ براءتي
وأُريد يا إفريقيا
ـ ماذا تريد ؟
* أُريد أن أرث السحاب
من جُثَّة الأبنوس . . يا إفريقيا

ألقت بنا ريح الشمال إليك

يا إفريقيا

ألقتْ بنا ريح الشمال

لنكون عُشّاقاً وقتلى.

وبدون ذاكرةٍ ذكرنا كل شيء عن ملامحنا

ووجهُك فوق خارطة الظلال

مرَّ المغني تحت نافذةٍ

وخبَّأ صوته في راحتيه

سرّاً يحبُّك، أو علانيةً يمرّ

وينحني كالقوس. يا إفريقيا

وحشيَّتان

عيناك - يا إفريقيا - وحزينتان

عيناك كالحبِّ المفاجىء

كالبراءة حين تُفترعُ البراءة.

مرّ المغني تحت نافذة

وأعلن يأسه

- من أنت؟

* عاشق

ـ من أين جئت ؟

* أنا من سلالات الزنابق والمشانق

والريح تحبل.. ثم تُنجبني

وترميني على كل الجهات

ـ ماذا تريد ؟

* أُريد ميلاداً جديد

وأريد نافذة جديدهْ

لأحبَّها سرّاً وتقتلني علانيةً

وأرحل عنك.. يا إفريقيا !

المدينة المحتلة

الطفلة احترقتْ أُمُّها
أمامها. .
احترقتْ كالمساءْ.
وعلَّموها: يصير اسمُها ـ
في السَّنةِ القادمهْ ـ
سيِّدَة الشهداءْ
وسوف تأتي إليها
إذا وافق الأنبياء!

الطفلةُ احترقتْ أُمها
أمامها. .
احترقت كالمساء.

من يومها،

لا تحبُّ القمر

ولا الدُّمى

كُلَّما

جاء المسا، صرخت كُلُّها :

أنا قتلتُ القمر

لأنه قال لي : . . . . قال . . قال :

أُمّكِ لا تشبه البرتقال

ولا جذوع الشجر

أُمّكِ في القبر

لا في السماء.

الطفلةُ احترقتْ أُمها

أمامها . .

احترقت كالمساء . .

عابر سبيل

بلادي بعيدهْ
تبخَّر مني ثراها
إلى داخلي . .
لا أراها .
وأنت بعيدهْ
أراك
كومضة ورد مفاجىء
وفي جسدي رغبةٌ في الغناء
لكلِّ الموانىء .
. . وإني أُحبُّكِ
لكنني
لا أُحبُّ الأغاني السريعهْ

ولا القُبَلَ الخاطفةْ
وأنت تحبّينها
كبحّارة يائسين . .

أرى عبر زنبقة المائدةْ
وعبر أناملك الشاردهْ
أرى البرق يخطف وجهي القديم
إلى شرفة ضائعةْ
وأنت تحبّينني -
قلت -
من أجل هذا المساء.

لنرقصْ إذن،
أنا الماء والظلّ
والظل والماء لا يعرفان الخيانةْ
ولا الانكسارْ
ولا يذكران
ولا ينسيان
ولكن . . لماذا ؟

لماذا توقفتِ الأسطوانهْ ؟
ومن خَدَشَ الأسطوانهْ
لماذا تدور على نفسها :
بلادي بعيدهْ
بلادي
بلادي
بلادي

خطوات في الليل

دائماً،

نسمعُ في الليل خطى مقتربةْ

ويفرُّ البابُ من غرفتنا

دائماً،

كالسُّحُب المغتربةْ !

ظلُّكِ الأزرقُ من يسحبُهُ

من سريري كُلَّ ليلةْ ؟

الخطى تأتي، وعيناك بلاد

وذراعاك حصارٌ حول جسمي

والخطى تأتي

لماذا يهرب الظل الذي يرسمني

يا شهرزاد ؟

والخطى تأتي ولا تدخلُ

كوني شجرا

لأرى ظلَّك

كوني قمرا

لأرى ظلك

كوني خنجرا

لأرى ظلك في ظلّيَ

ورداً في رماد !..

دائماً،

أسمعُ في الليل خُطًى مقتربهْ

وتصيرين منافيَّ

تصيرين سجوني..

حاولي أن تقتليني

دفعةً واحدة

لا تقتليني

بالخطى المقتربهْ !.

سرحان يشرب القهوة في الكفاتيريا

يجيئون،

أبوابُنا البحرُ، فاجأنا مطرٌ. لا إله سوى الله. فاجأنا

مطرٌ ورصاصٌ. هنا الأرضُ سُجّادةٌ، والحقائب

غربةْ!.

يجيئون،

فلتترجَّلْ كواكبُ تأتي بلا موعد. والظهورُ التي

استندتْ للخناجر مضطرة للسقوط.

وماذا حدث؟

أنت لا تعرف اليوم. لا لون. لا صوت. لا طعم.

لا شكل.. يُولد سرحان، يكبر سرحان،

يشرب خمراً ويسكرُ. يرسمُ قاتله، ويمزِّق

صورته. ثم يقتله حين يأخذ شكلًا أخيراً.

ويرتاح سرحان:

سرحان! هل أنتَ قاتل؟

ويكتب سرحان شيئاً على كُمٍّ معطفه، ثمَّ تهرب

ذاكرةٌ من ملفِّ الجريمة.. تهرب.. تأخذ

منقار طائر.

وتأكل حبة قمح بمرج بن عامر.

وسرحانُ مُتَّهم بالسكوت، وسرحان قاتل

* * *

وما كان حُبّاً

يدان تقولانِ شيئاً، وتنطفئان.

قيودٌ تلد

سجون تلد

منافٍ تلد.

ونَلتفُّ باسمكِ،

ما كان حُبّاً

يدان تقولان شيئاً.. وتنطفئان..

ونعرف، كُنّا شعوباً، وصرنا حجارهْ

ونعرف، كنتِ بلاداً وصرتِ دخان

ونعرف أشياء أكثر

نعرف، لكنَّ كل القيود القديمه

تصير أساور ورد

تصير بكارهْ

في المنافي الجديده.

ونلتفُّ باسمك

ما كان حُبّاً

يدان تقولان شيئاً وتنطفئان.

وسرحان يكذب حين يقول رضعتُ حليبك، سرحان

من نسل تذكرة، وتربّى بمطبخ باخرة لم تلامس

مياهكِ. ما اسمك ؟

ـ نسيت.

وما اسم أبيك ؟

ـ نسيت

وأُمك

ـ نسيت.

وهل نمتَ ليلةَ أمس ؟

ـ لقد نمتُ دهراً.

حلمت ؟

ـ كثيراً.

بماذا ؟

ـ بأشياء لم أرها في حياتي

وصاح بهم فجأة :

ـ لماذا أكلتم خضاراً مُهرّبة من حقول أريحا ؟

ـ لماذا شربتم زيوتاً مهرَّبة من جراح المسيح ؟

وسرحانُ مُتَّهم بالشذوذ عن القاعدهْ.

* * *

رأينا أصابعه تستغيث. وكان يقيس السماء بأغلاله.

زرقةُ البحر يزجرها الشرطيُّ، يعاونه خادم آسيويّ.

بلاد تغيَّر سكانها، والنجوم حصى.

وكان يغنّي : مضى جيلنا وانقضى.

مضى جيلنا وانقضى.

وتناسل فينا الغُزاةُ تكاثر فينا الطغاة. دم كالمياه،

وليس تجفّفه غير سورة عم وقبعةِ الشرطيّ

وخادمِهِ الأسيوي. وكان يقيس الزمان بأغلاله.

سألناه : سرحان عمَّ تساءلت ؟
قال : اذهبوا. فذهبنا
إلى الأمهات اللواتي تزوَّجن أعداءنا.
وكنَّ ينادين شيئاً شبيهاً بأسمائنا.
فيأتي الصدى حَرَساً.
ينادين قمحاً.
فيأتي الصدى حَرَساً.
ينادين عدلاً
فيأتي الصدى حَرَساً
ينادين يافا
فيأتي الصدى حرساً.
ومن يومها، كفَّت الأمهات عن الصلوات، وصرنا
نقيس السماء بأغلالنا
وسرحان يضحك في مطبخ الباخرهْ.
يعانق سائحةً، والطريقُ بعيدٌ عن القدس والناصرهْ
وسرحان مُتَّهم بالضياع وبالعدميَّه

* * *

وكلُّ البلاد بعيدهْ.

شوارعُ أخرى اختفت من مدينته (أخبرتهُ الأغاني
وعزلتُهُ ليلة العيد أن له غرفة في مكان).
ورائحةُ البنِّ جغرافيا.
وما شرَّدوك.. وما قتلوك.
أبوك احتمى بالنصوص، وجاء اللصوص.
ولستَ شريداً.. ولستَ شهيداً.. وأُمك باعت

ضفائرها للسنابل والأمنيات: (وفوق سواعدنا
فارسٌ لا يسلِّم (وشم عميق). وفوق أصابعنا
كرمةٌ لا تهاجر (وشم عميق).

خُطى الشهداء تُبيدُ الغزاة
(نشيد قديم)
ونافذتان على البحر يا وطني تحذفان المنافي.. وأرجع
(حلم قديم - جديد)
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلته ليلة العيد أن له غرفة في مكان).
ورائحةُ البُنِّ جغرافيا.
ورائحة البن يدْ
ورائحة البن صوت ينادي.. ويأخذ..

رائحة البن صوت ومئذنة (ذات يوم تعود).

ورائحة البن ناي تزغرد فيه مياه المزاريب. ينكمش
الماء يوماً ويبقى الصدى.

وسرحان يحمل أرصفةً ونواديْ ومكتبَ حجز التذاكر.
سرحان يعرف أكثر من لغة وفتاة. ويحمل تأشيرة
لدخول المحيط وتأشيرة للخروج. ولكنَّ سرحانَ
قطرةُ دم تفتش عن جبهة نزفتها.. وسرحان
قطرة دم تفتِّش عن جثة نسيتها.. وأين؟
ولست شريداً.. ولست شهيداً.

ورائحة البن جغرافيا.

وسرحان يشرب قهوته..

ويضيع.

* * *

هنا القدس.

يا امرأة من حليب البلابل، كيف أُعانق ظلّي..
وأبقى؟

خُلقتَ هنا. وتنامُ هناك.

مدينته لا تنام. وأسماؤها لا تدوم. بيوت تغيَّر

سكانها. والنجوم حصى.
وخمسُ نوافذ أخرى، وعشر نوافذ أخرى تغادر
حائط
وتسكن ذاكرةً.. والسفينةُ تمضي.
وسرحان يرسم شكلًا ويحذفه : طائرات وربٌّ قديم
ونابالم يحرق وجهاً ونافذة.. ويؤلف دولةْ.
هنا القدس.
يا امرأة من حليب البلابل، كيف أعانق ظلي..
وأبقى ؟
ولا ظلّ للغرباء.
مساءٌ يرافقهم، والمساء بعيد عن الأمهات قريب من
الذكريات. وسرحان لا يقرأ الصحف العربية..
لا يعرف المهرجانات والتوصيات. فكيف إذن
جاءه الحزن.. كيف تقيَّأ ؟
وما القدس والمدن الضائعهْ
سوى ناقة تمتطيها البداوة
إلى السلطة الجائعهْ.
وما القدس والمدن الضائعهْ

سوى منبر للخطابهْ.

ومستودعٍ للكآبهْ.

وما القدس إلّا زجاجة خمر وصندوق تبغ. . .

. . . ولكنها وطني.

من الصعب أن تعزلوا

عصير الفواكه عن كريات دمي. .

ولكنها وطني

من الصعب أن تجدوا فارقاً واحداً

بين حقل الذرهْ

وبين تجاعيد كفّي

ولكنها وطني. .

لا فوارق بين المساء الذي يسكن الذاكرهْ

وبين المساء الذي يسكن الكرملا

ولكنها وطني.

في الحقيقة والدم متّسع للجميع.

وخط الطباشير لا يكسر المطر المقبلا

هنا القدس. .

كيف تعانق حريتي ـ في الأغاني ـ عبوديتي ؟

وسرحان يرسم صدراً ويسكنه
وسرحان يبكي بلا ثمن ووسام
ويشرب قهوته. . ويضيع

* * *

يُمَزِّقُ غيماً، ويرسله في اتجاه الرياح. وماذا ؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة. لا بُدَّ من تربة صالحه.
أَتذهب صيحاتنا عبثاً ؟
أكلتَ . شربتَ. . ونمتَ. حلمت كثيراً. أفقتْ
تعلمت تصريف فعل جديد. هل الفعل معنى بآنية
الصوت. . أم حركه ؟
وتكتب ض. ظ. ق. ص. ع. وتهرب منها، لأن
هدير المحيطات فيها ولا شيء فيها. ضجيج الفراغ
حروف تميزنا عن سوانا ـ طلعنا عليهم طلوع
المنون ـ فكانوا هباء وكانوا سدىً. سدىً نحن.
هم يحرثون طفولتنا ويصكون أسلحةً من أساطيرَ
أعلامهم لا تغني. وأعلامنا تجهضُ الرعد. نقصفهم بالحروف
السمينة: ض. ظ. ص. ق. ع. ثم نقول انتصرنا. وما
الأرض ؟ ما قيمة الأرض ؟ أتربة ووحول. نقاتل أو لا نقاتل ؟

ليس مهماً سؤالكَ ما دامت الثورةُ العربيةُ محفوظةً في الأنـاشيد
والعيد والبنك والبرلمان.
وتعرف أن الغزاة عِصِيٌّ بأيدي المماليك. تكتب
ض. ظ. ق. ص. ع.
تمزق غيماً وترسله في اتجاه الرياح. وماذا ؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة. لا بد من تربة صالحه.
وتمضي السفينة. تبقى غريباً. جراحك مطبعة للبلاغات
والتوصيات. وباسمك تنتصر الأبجديةُ، باسمك
يجلس عيسى إلى مكتب ويوقع صفقة خمر وأقمشة
ويحيي العساكر باسمك. باسمك تُحفظ في خيمة
وتُعلَّب في خيمة. لا هوية إلاّ الخيام. إذا
احترقتِ.. ضاع منك الوطن.
وباسمك تأتي وتذهب. باسمك حِطّينُ تصبح مزرعةً
للحشيش، وثوّارك السابقون سعاةَ بريدٍ. وباسمك
لا شيء. يأتي القضاة، يقولون للطين كن جبلاً
شامخاً فيكون. يقولون للترعة انتفخي أنهراً فتكون
وتكتب ض. ظ. ص. ع. ق.
تُمزِّق غيماً وترسله في اتجاه الرياح. وماذا؟

هنالك غيم شديد الخصوبة. لا بدّ من تربةٍ صالحه

أتذهب صيحاتنا عبثاً ؟

وليست خيامك ورد الرياح. وليست مظلات شاطىء.

تَدجَّجْ بأعمدة الخيمة. احترقي يا هويَّتنا ـ صاح لاجىء.

وسرحان يشرب قهوته. للجليل مزايا كثيرة.

ويحلم، يحلم، يحلم.. آه ـ الجليل !

* * *

ومَن كفَّ يوماً عن الاحتراق

أعارَ أصابعه للضماد

وصرَّح للصحفيِّ وللعدسات :

جريح أنا يا رفاق

ونال وساماً.. وعاد.

وسرحانُ،

ما قال جرحيَ قنديلُ زيتٍ وما قال..

صدريَ شبّاكُ بيتٍ وما قال..

جلديَ سجّادةٌ للوطن.

وما قال شيئاً.

أتذهب صيحاتنا عبثاً ؟

كل يوم نموت، وتحترق الخطوات وتولد عنقاء
ناقصة، ثم نحيا لنُقتل ثانيةً.
يا بلادي، نجيئك أسرى وقتلى.
وسرحان كان أسير الحروب، وكان أسير السلام.
على حائط السَّبْي يقرأ أنباء ثورته خلف ساق مغنِّيةٍ
والحياةُ طبيعيَّة، والخضار مهرَّبة من جباه العبيد
إلى الخطباء. وما الفرق بين الحجارة والشهداء ؟
وسرحان كان طعام الحروب، وكان طعام السلام.
على حائط السَّبي تعرض جثَّته للمزاد. وفي المهجر
العربي يقولون : ما الفرق بين الغزاة وبين الطغاة ؟
وسرحان كان قتيل الحروب، وكان قتيل السلام.
على حائط السَّبي يصطدم العلم الوطني بأحذية الحرس
الملكي. وحربك حربان. حربك حربان.
سرحان ! لا شيء يبقى، ولا شيء يمضي. اغتربتَ..
لجأتَ.. عرفت. ولست شريداً ولست شهيداً
خيامك طارت شراره.
وفي الريح متَّسعٌ
هل قَتَلت ؟

ويسكت سرحان. يشرب قهوته ويضيع. ويرسم
خارطة لا حدود لها. ويقيس الحقول بأغلاله

ـ هل قتلت ؟

وسرحان لا يتكلم. يرسم صورةَ قاتله من جديد،
يمزِّقها، ثم يقتلها حين تأخذ شكلاً أخيراً..

ـ قتلت ؟

ويكتب سرحان شيئاً على كُمِّ معطفه، ثم تهرب
ذاكرة من ملفِّ الجريمة.. تهرب.. تأخذ منقار
طائر.

وتزرع قطرة دم بمرج بن عامر.

أحبك أو لا أحبك
(١٩٧٢)

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح